

السياسة الفرنسية البربرية بالمغرب ما بين سنتي 1913 و 1930:

أصولها وأهدافها وردود فعل المغاربة إزاءها.

The barbaric french policy in Morocco between 1912 and 1930 :

Its origins, goals and Moroccan's reaction over it.



د. محمد سليمان

Slimanimohamed471@gmail.com

أستاذ بثانوية مولاي الحسن، ميسور، المغرب

تاريخ القبول للنشر: 2019/12/03

تاريخ الاستلام: 2019/11/18



ملخص:

كانت للسياسة البربرية أهمية كبرى في الإستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، إذ اعتبرها رجال الإقامة العامة الوسيلة الأنجع لتوطيد دعائم السيطرة الفرنسية بالمغرب، ولفهم هذه السياسة يجب البحث في أصولها وأسبابها، ورصد الدور الذي لعبه الجنرال ليوطي Lyautey أول مقيم عام في المغرب في ترسيخ جذورها، كما أن الحديث عن نتائجها يستدعي الاهتمام بموقف المغاربة وردود فعلهم اتجاهها وخاصة قبل صدور الظهير البربري سنة 1930.

الكلمات المفتاحية: السياسة البربرية، الاستراتيجية الاستعمارية الفرنسية، السيطرة الفرنسية، الظهير البربري.

Abstract :

the barbaric policy was of great importance in french colonial strategy, the protectorate's men considered it most efficient to the consolidation of the french domination over Morocco, to understand this policy, its compalsory to sok, its origins, causes, and shod light on the role of Marishal Lyautey, the first resident General in Morocco, in establishing its origins, besides to talk about the result of this policy we need to give much care for Moroccan people attitude and their reaction toward this policy, especelly before the issue of the berber decree in 1930.

Key words : the barbaric policy, french colonial strategy, the french domination, the berber decree.

مقدمة:

في مطلع القرن التاسع عشر فكر نابليون بونابارت Napoléon Bonaparte في توجيه حملة عسكرية للسيطرة على المغرب الكبير كله، وكان مشروع هذا الاحتلال واحدا من البنود السرية للمعاهدات التي عقدها نابليون مع " ألكسندر الأول" إمبراطور روسيا في شهر يوليوز 1807، إلا أن الاحتلال كان يمثل ضرورة إستراتيجية عنده من أجل بسط السيادة الفرنسية على البحر الأبيض المتوسط وانتزاعه من يد بريطانيا، وبهذا الخصوص صرح أوجين إيتيان Eugène Etienne وهو نائب منطقة وهران في مجلس البرلمان الفرنسي في مطلع القرن العشرين قائلا: ((إن لفرنسا في المغرب حقوقا وواجبات تفوق ما لغيرها من الدول الأخرى...، وإن الأساس الأول لحقوقنا هي الجزائر، إن الجزائر قادتنا لتونس وينبغي أن تقودنا للمغرب)).

1- أوضاع المغرب المتدهورة وإعلان الحماية الفرنسية:

إن المغرب مثله مثل باقي البلدان الإفريقية والأسيوية كان محط أطماع الدول الاستعمارية منذ القرن الثامن عشر، هذه الدول التي كانت تبحث عن الثروات المعدنية والفلاحية والأسواق واليد العاملة الرخيصة، وفي هذا الصدد كان احتلال الجزائر

سنة 1830 والمغرب سنة 1912 نظرا لموقعهما الإستراتيجي وثروتهما الاقتصادية المهمة 2.

لقد خضع المغرب للحماية الفرنسية والإسبانية في الوقت الذي بدأ التطور الرأسمالي العالمي يحتم التوسع من أجل إيجاد المجال لتصريف البضائع المصنعة، في حين كان المغرب يعرف ثورات قبائلية ضارية، وانهلال سلطة المخزن، واستبداد كبار القواد بالسلطة، وكانت الخزينة المغربية في هذه الفترة تعيش وضعية إفلاس، وبدأت الجيوش الفرنسية منذ سنة 1907 تحتل أجزاء واسعة من البلاد بدءا بمدن وجدة والدار البيضاء وفاس 3.

إن الظروف التي هيأت لاستعمار المغرب ترجع إلى القرن نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، حين اتجهت أطماع بعض الدول الاستعمارية إلى بلدان المغرب الكبير، إذ استولت فرنسا على الجزائر تمهيدا للاستيلاء على المغرب وتونس، وفي هذا الإطار قاوم الجزائريون الاستعمار الفرنسي وآزرهم في كفاحهم الشعب المغربي، الذي خاض من أجلهم معركة "إيسلي" سنة 1844، والتي ذاق فيها المغاربة الانهزام الأول أمام الجيوش الفرنسية، وقد أبانت هذه المعركة عن الضعف العسكري والاقتصادي والسياسي للمغرب، الشيء الذي جعل الفرنسيين يولون أهمية خاصة للمغرب باعتباره بلدا ضعيفا يمكن احتلاله بسهولة.

2- أصول السياسة البربرية:

أشار الأوروبيون القلائل الذين اهتموا بالكتابة عن بلدان إفريقيا الشمالية قبل سنة 1930، إلى كثرة عدد البربر واختلافهم عن العرب نتيجة لتشبههم باستقلالهم وعاداتهم وأعرافهم ولهجاتهم، ومع ذلك فقد ساد الاعتقاد بأن المنطقة جزء من الشرق العربي الإسلامي، وما زاد هذا الاعتقاد رسوخا تقليل بعض المؤلفين من أهمية الفوارق والاختلافات التي قيل بوجودها بين العرب والبربر، إذ تحدث لومبرييه Lemprière

مثلا، عن التشابه بين الأعراف والعادات البربرية والعربية⁵، كما أكد في نفس الإطار الراهب راينال Raynal على الانسجام الحاصل بين العنصرين بفضل الإسلام الذي عمل في نظره على تقليص الفوارق ودفع السكان الأصليين إلى تقبل وتبني المؤسسات الإسلامية⁶.

وقد زادت معرفة الفرنسيين بمجتمعات إفريقيا الشمالية من خلال اتصالهم بسكان الجزائر، بعد شروعهم في احتلال هذا البلد المغاربي سنة 1830، واكتملت نتيجة ذلك الصورة التي كونوها عن البربر، خصوصا بعد المقاومة الشديدة التي واجهتهم بها القبائل الأمازيغية بمنطقة "جرجرة" أو "القبائل الكبرى"، وبالتالي أصبحت صورتهم تتشكل من ثلاثة عناصر أساسية وهي:

-- وجود تناقض تام بين العرب والبربر، فالفرنسيون الذين انطلقوا من فكرة قبلية، وهي فكرة صراع الأجناس لم يكتفوا بالحديث عن الاختلاف بين العنصرين فقط، إذ قدموهما كطرفين متضادين ومتصارعين.

-- أن البربري أفضل من العربي، فإذا كان الثاني قد وصف بكل الصفات القبيحة مثل (الكسل والنفاق وضعف العزيمة....)، فإن البربري المتوحش الطيب وصف بالبدائية والفضاظة والاندفاع وراء الغرائز من جهة، وبصدقه وإخلاصه وشجاعته وميله الفطري للديمقراطية والحرية وحب العمل من جهة أخرى.

-- أن البربري أكثر قابلية واستعدادا من العربي للتطور والتقدم، بل وللانصهار في المجتمع الفرنسي واعتناق الديانة المسيحية.

إن هذا التصور الذي اصطلح على تسميته بـ "الأسطورة البربرية"⁷، قد انبنى على فكرة أساسية تتمثل في الإيمان بأن البربري غير مسلم أو مسلم سطحي فقط، فالإسلام وفق ما ذهبوا إليه يحث الناس على محاربة ومقاتلة النصارى، ويدعو إلى الثورة والتمرد على المستعمر من جهة، ويمنع المسلمين من الانفتاح على الحضارة العصرية من جهة أخرى، وكم كانت فرحتهم شديدة عندما اكتشفوا أن البربري ضعيف التأثير

بالإسلام، وقد ساعدتهم ذلك على الاقتناع بضرورة عزله عن العرب ووضع المشاريع، خصوصا بالنسبة لمنطقة القبائل الكبرى من أجل تمدينه وتطويره خارج إطار الإسلام.

لقد ميز الفرنسيون بالمغرب طبعا بين العرب والبربر، فقد ذكر دي شيني De chenier مثلا منذ سنة 1787 أن القبائل الأمازيغية تتميز أولا بالقوة والحزم، وباستعداد كبير للقيام بأي عمل يعجز عنه سكان السهول، إضافة إلى تشبثها بالحرية والاستقلال، وهي على حد قوله لا تخضع للسلطان إلا من منطلق ديني، وخضوعها هذا لا يمنعها من التمرد عليه متى شاءت، أما سكان السهول العرب، فقد أكد أنهم يخضعون للسلطان بنوع من الاستسلام إلى درجة أنهم فقدوا حتى الشعور بالفخر والاعتزاز بالنفس⁸.

وتجدر الإشارة مع ذلك إلى أن الفكرة المحورية والأساسية في التأليف الفرنسي الصادر في القرن التاسع عشر، لم تكن تتعلق بمسألة الاختلاف والتناقض بين البربر والعرب، وإنما كانت تدور حول فكرة التعارض بين المخزن ومناطق السبية، والسبية هنا لا تقدم لنا كظاهرة عرقية تهم البربر وحدهم، وإنما كظاهرة سياسية يرتبط وجودها بطبيعة المخزن وضعف سلطته من جهة، وميل القبائل للحرية والاستقلال من جهة ثانية، لكن ذلك لم يمنع بعض الفرنسيين من إحداث تطابق بين بلاد السبية والمناطق التي تقطنها القبائل الأمازيغية وذلك رغم ضعف معرفتهم بها، فقد ذكر لودفيك دي كامبو Ludovic de Campou أن المجتمع المغربي ينقسم إلى قسمين أساسيين من القبائل وهما: القبائل البربرية التي تعيش بالجبال، وتحكم نفسها بنفسها، ولا تدفع الضرائب، ولا تعترف بسلطة السلطان، والقبائل العربية الخاضعة المستقرة بالسهول، المضطهدة والمذلة، والتي قتل الرعب فيها حتى فكرة المقاومة نفسها⁹، لكن أطروحة السبية البربرية لم تفرض نفسها إلا بعد سنة 1904، وذلك بعد أن جند بعض الباحثين أنفسهم (خصوصا بين سنتي 1909 و 1912) للدفاع عنها وإشاعتها مؤكدين أن المغرب بلد بربري حافظ أهله عبر التاريخ على حيويتهم وأصالتهم واستمراريتهم¹⁰.

كل هذا دفع الفرنسيين إلى المناداة بتطبيق السياسة البربرية واستغلال الفوارق والاختلافات التي قيل بوجودها بين البربر المحصنين بالجبال والعرب الخاضعين بالسهول لسلطة المخزن، ورغم ذلك فهذا التصور لم يفرض نفسه على الخبراء العسكريين والمسؤولين السياسيين الفرنسيين بالمغرب قبل سنة 1912، وحتى الجنرال ليوطي Lyautey الذي كان أكبر مسؤول عسكري بالجنوب الشرقي المغربي منذ نهاية 1903، لم يعمل على تطبيقه رغم اقتناعه بصحته، وذلك لشعوره بالحاجة إلى السلطان للسيطرة على المغرب 11.

إن هذا التصور الذي فرض نفسه بين الفرنسيين آنذاك، يتمثل في "سياسة القبائل" وليس "السياسة البربرية"، وسياسة القبائل تقوم كما هو معلوم على أساس عدم إدخال سلطة المخزن إلى القبائل السائبة، والسياسة هنا لم تؤخذ كظاهرة عرقية تهم البربر وحدهم، بل كظاهرة سياسية تهم القبائل العربية أيضاً، ولم يكن تطبيق هذه السياسة يعني في نظر العديد من الخبراء الباحثين إقصاء المخزن، وإنما خلق توازن بينه وبين القبيلة، على اعتبار أن كل أجزاء المغرب تخضع بشكل من الأشكال لعمل المخزن 12، وتنبغي الإشارة إلى أن "الأسطورة البربرية" كانت قد فقدت إشعاعها في الجزائر وفرنسا منذ سنة 1930، ولهذا السبب فإنها لم تفرض نفسها على المسؤولين السياسيين الفرنسيين حين عزموا على إحكام قبضتهم على المغرب وتضييق الخناق عليه منذ مطلع القرن العشرين، هكذا أصبحت مسألة الاختلاف بين العرب والبربر نفسها عرضة للانتقاد، والانتقادات باتت وهما أو مرضاً من أمراض الفكر الاستعماري الفرنسي 13، وقام بعض الباحثين من التقليل من أهميتها، فالباحث إدمون دوتي Edmond Douté مثلاً ذكر منذ سنة 1901، أن هذا التمييز باطل ولا يستند على أسس علمية صحيحة، وأنه لا يمكن إطلاق إسم عرق على مجموع البربر للاختلافات الكثيرة الموجودة بينهم، وبين أن التاريخ والواقع يشهدان على أن عدة قبائل أمازيغية تعربت وأخرى قبائل عربية تمزغت 14.

أ- **انتعاش الأسطورة البربرية:** بعد اصطدام الجيش الفرنسي بقبائل الأطلس المتوسط الأمازيغية، روج الكونت بيس وكنزاك Le conte de Segonzac صورة سلبية عن البربر سنة 1903، بل إنه عبر في بعض الأحيان عن أفكار معادية لهم، إذ وصف أفراد قبائل الأطلس المتوسط بالفظاظة وقبح المنظر، وانتقد بعنف ثقافتهم وتنظيماتهم الاجتماعية، فهو لم ينظر لهم قط من خلال وصفه نظرة استحسان وتفضيل، بل كان دائما يعتبرهم أقوام متوحشة منغلقة على نفسها بعيدا عن المؤثرات المخزنية والإسلامية¹⁵.

وقد تأثر الضباط الفرنسيون الذين اصطدموا بالقبائل الأمازيغية القاطنة بالأطلس المتوسط منذ سنة 1911 بهذه الصورة السلبية، وعبروا بدورهم عن أفكار معادية للبربر¹⁶، ويرجع ذلك لعنف المقاومة التي صادفوها وضراوة المعارك التي خاضوها، إضافة إلى عجزهم عن تضيق الخناق على هذه المنطقة الجبلية التي تحصنت بها قبائل تتعاطى للانتجاع، ولا يعرف الفرنسيون عنها الشيء الكثير، لكن الظروف العصيبة التي عاشها هؤلاء الفرنسيون بالمغرب بين سنتي 1912 و 1914 دفعتهم إلى تغيير نظرهم للبربر.

كانت فرنسا قد تمكنت من فرض نظام الحماية على المغرب في شهر مارس من سنة 1912، إلا أنها بعد اندلاع انتفاضة فاس الوطنية، والتفاف قبائل الجنوب حول المقاوم أحمد الهيمية، شعرت بخطورة الوضع وبالخوف من انهيار صرح هذا النظام الاستعماري الجديد في بداية عهده، لهذا استدعت الجنرال ليوتي Lyautey ليصبح مقيما عاما بالمغرب، نظرا لما يتوفر عليه من خبرة وكفاءة، لكن هذا الجنرال شعر بأن موقفه أصبح حرجا لما عزم وأصر المغاربة على رفض نظام الحماية ومقاومة وطرد المستعمر، لهذا قرر تنويع الصيغ والأساليب الاستعمارية من أجل تهدئة الوضع وتوطيد دعائم السيطرة الفرنسية بالمغرب، وأصبحت هذه "السياسة البربرية" طبعا وسيلة من الوسائل التي اختارها لتحقيق هذه الأهداف، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد الصعوبات التي وجدها الجيش

الفرنسي في القضاء على انتفاضة قبائل كروان وبني مكيلا وبني مطير في ربيع سنة 1913.

لقد تبنى الجنرال ليوتي Lyautey إذن هذه السياسة، واتخذ على إثرها قرارات تذكر بتلك التي طبقها الفرنسيون قبلا بمنطقة القبائل الكبرى بالجزائر، خصوصا بين سنتي 1857 و 1890، ونتيجة لذلك انتعشت الأسطورة البربرية من جديد، بل أصبحت اعتقادا راسخا فرض نفسه على مختلف الأوساط السياسية والفكرية والدينية، إذ عاد الفرنسيون إلى تمجيد البربري، وإلى الحديث عنه بنوع من الإعجاب والافتتان، إلى درجة أن أحد رجالات الحماية الفرنسية وهو **موريس لوكلاي Maurice Le Glay**¹⁷ اعتبر العالم البربري كيان هائل ومادة جديدة أصبح الفرنسيون ينجذبون إليها.

3- السياسة البربرية: القرارات والأهداف:

أعلن الجنرال ليوتي Lyautey مرارا عن تشبته بنظام الحماية، واحترامه لسيادة السلطان على المغرب، لكن ذلك لم يمنعه من تطبيق مبادئ السياسة البربرية، خصوصا بمنطقة الأطلس المتوسط، ويذكرنا ما فعله هذا الجنرال في هذا المجال، بما ذكره **ألفريد لوشاتلي Alfrid Le Chatelier** قبل سنة 1912، من ضرورة إحداث توازن في السياسة المغربية بين المخزن والقبيلة للسيطرة على المغرب¹⁸.

لقد عمل ليوتي Lyautey على ترسيخ جذور السياسة البربرية بالمغرب، وتجريد السلطان من سلطته على أكبر جزء من البلاد عن طريق إخضاع القبائل الأمازيغية للمحاكم العرفية، وإنشاء الجماعات القضائية البربرية، ومحاربة كل المؤثرات العربية الإسلامية¹⁹، وكان ظهور 11 شتنبر 1914 الأساس الذي ارتكز عليه والقاعدة التي استند عليها لتحقيق ذلك، وينص هذا الظهير من خلال فصليه الأول والثاني على ما يلي:

-- **الفصل الأول:** إن القبائل البربرية الموجودة بإيالتنا الشريفة تبقى شؤونها جارية على مقتضى قوانينها وعوائدها الخصوصية تحت مراقبة الحكومة.

-- **الفصل الثاني:** تصدر قرارات من الصدر الأعظم بعد الموافقة مع الكاتب العام لدى الدولة في تعيين القبائل المتبعة للعوائد البربرية، كما يقع تعيين ما ينطبق على تلك القبائل والقوانين والضوابط...20.

لقد عملت الإقامة العامة الفرنسية على إصدار عدة ظهائر بربرية أخرى، أهمها ظهور 15 يونيو 1922 الذي حول "للجماعة في القبائل ذات العوائد البربرية التي ليس فيها محكمة لإجراء العمل بالشرع المطاع" حق مباشرة وضبط العمليات المتعلقة بتفويت العقارات²¹، كما أنها أصدرت العديد من القرارات الوزارية التي تحدد أسماء القبائل ذات العوائد البربرية، وطبعا فقد توالى هذه القرارات وتزايد عدد هذه القبائل بتزايد العمليات العسكرية، واتساع المجال الخاضع لسلطات الحماية.

إن هذه الإجراءات التي اتخذها الجنرال ليوتي Lyautey في مجال السياسة البربرية كانت الأساس الذي ارتكز عليه المقيم العام اللذان أتيا من بعده (تيودور ستيغ Tyodour Steeg و لوسيان سان Loussiane Saint) للدفع بهذه السياسة إلى الأمام، ومع ذلك فإن حرب الريف عملت:

أولا: على إظهار تشبثه بنظام الحماية، وتمسكه بسياسة المخزن وميله للمخزن على حساب القبيلة عكس ما فعله في الأطلس المتوسط.

ثانيا: على تخطيطه ودفعه إلى تقديم استقالته، كما أنها أعطت الفرصة لأنصار السياسة البربرية لانتقاده، بدعوى أنه أهمل البربر ووحد البلاد تحت راية السلطان، ومن هنا كانت استقالته في نهاية سنة 1925 نجاحا بالنسبة لأنصار هذه السياسة، في الوقت الذي لم تخف فيه الكنيسة رغبتها في تنصير البربر، لهذا لم يتسلح المسؤولون الفرنسيون بعده بالصبر والحذر والكتمان، إذ كانت الإجراءات التي اتخذوها وخصوصا بعد وفاة السلطان

مولاي يوسف كفيلة بإثارة انتباه واستياء المغاربة الذين اتهموهم بالرغبة في فرنسا المغرب وتنصير البربر، وكان صدور ظهير 16 ماي 1930 نتيجة ذلك²²، خطأ سياسيا فادحا ارتكبته الإقامة العامة، وضربة موجعة للسياسة البربرية، لأنه أدى إلى التفاف المغاربة فيما بينهم لمواجهة نظام الحماية والاستعمار.

وهكذا فشلت فرنسا في تحقيق أهدافها بعد أن تنبه المغاربة لخطورة السياسة البربرية، ويمكن القول دون تردد أن هذه الأهداف لم تكن في صالح البربر، فإذا كان بعض الفرنسيين قد دافعوا عن فكرة عزل البربري عن العربي، وتحمسوا لمسألة تطويره في اتجاه الحضارة الفرنسية، وصهره في المجتمع الفرنسي أو تأسيس "بربرستان" مندمج في فرنسا، فإن خبراء الشؤون الأهلية وكبار موظفي الحماية انحصر همهم في عزل البربري والمحافظة عليه كما هو²³، ومن الأهداف الحقيقية المتوخاة من ذلك:

أ- إقصاء السلطان من المناطق التي اعتبرت قبائلها ذات عوائد بربرية وتجريده من سلطته عليها.

ب- تدجين العنصر البربري وتطوعه وتهيئته ليشكل قوة معارضة أو موازية لعرب السهول، تستغلها فرنسا في دعم سيطرتها على المغرب²⁴.

ج- استغلال الموارد الاقتصادية الموجودة بهذه المناطق بحرية وبعيدا عن مراقبة المخزن، فالإقامة العامة مثلا حافظت على الأعراف البربرية ولم تلغي حتى الأعراف التي وصفها البعض بالهمجية، لكنها عدلت وغيّرت الأعراف التي تمكنها من فتح الأبواب على مصراعيها أمام المعمرين للاستيلاء على أجود الأراضي التي كانت بحوزة القبائل الأمازيغية²⁵.

4- ردود فعل المغاربة:

كان الفرنسيون يعتقدون أن سياستهم البربرية ستصادف النجاح المطلوب، لكن الواقع أثبت سوء تدبيرهم وفشلهم في تحقيق أهدافهم وفي إنجاح مخططاتهم، ويرى البعض بأن لهذا الفشل عدة أسباب نذكر منها²⁶:

أولاً: المبالغة والمغالاة في الحديث عن الظاهرة البربرية، فهم لم يكتفوا بالحديث عن الاختلافات الموجودة بين العرب والبربر، بل امنوا بوجود تناقض وتنافر بين العنصرين، وبنوا سياساتهم على وهم يتمثل في الاعتقاد بأن البربر غير مسلمين أو ضعيفوا التأثير بالإسلام.

ثانياً: معاكسة سياستهم العامة بالمغرب لأهداف السياسة البربرية، ويظهر ذلك من خلال مثالين اثنين:

أ- إن اعتماد الفرنسيين على سياسة المخزن ورفع راية السلطان أثناء عمليات التهذئة، دعماً لمركز السلطان كرمز للسيادة المغربية، ورغم أن السلطة الفعلية كانت في يد الفرنسيين، فإن هؤلاء كانوا في حاجة إلى السلطان، وهذا شيء طبعاً عزز من نفوذ وسيادة السلطان على البلاد، وهو عكس ما كانوا يصبون إليه.

ب- إن إنجاز المشاريع الاقتصادية وغيرها (مثل بناء المعامل، وتطوير شبكة المواصلات...) فهذه المنجزات، رغم العوائق والعراقيل التي خلقتها الإقامة العامة بالمناطق العرفية، فإنها عملت على إحكام وتوثيق الصلة بين المغاربة وتمتين الاتصال والتواصل فيما بينهم، وهذا ساعد على انتشار التعريب في الأوساط الأمازيغية بإيقاع سريع لم تكن تتوقعه سلطات الحماية²⁷.

وزاد في إذكاء هذه المشاعر طبعاً صدور الظهير البربري سنة 1930، هذا الظهير الذي كان يهدف إلى التمييز بين العرب والبربر، وزرع بذور التفرقة بينهم بدعوى تنافر الجنسين منذ القدم دون أن يراعي التداخل الحضاري القوي بين الطرفين²⁸، إذ كان بمثابة

الدفعة القوية التي دفعت الحركة الوطنية إلى مزيد من الظهور على المستوى الدولي، وبالتالي اكتسبت وزناً كبيراً في العالم الإسلامي، كما أنها عملت على تعبئة الجماهير الشعبية ضد المستعمر باعتباره عنصراً دخيلاً وله قيم دينية وأخلاقية مختلفة عن الإسلام،

بالمقابل اعتبر المقيم العام الجنرال ليوطي Lyautey عملية السيطرة على المغرب "تهدة" حيث يقول الجنرال كاترو Catroux في هذا الصدد "إن سياسة ليوطي Lyautey لم تكن سياسة الفاتح بل سياسة المهدي، إنه لم يرغب في إخضاع التمردات بطلقات المدافع ولكن بإضعاف "الثوار" وتفريقهم ودمج عوامل الجذب مع عوامل القوة العسكرية، تلك العوامل التي تخضع لها القبائل أي المصلحة والخوف، يقدم لهم فوائد النظام والسلم التي تظهر بالتبادلات التجارية والمساعدات الطبية، ويظهر لهم في نفس الوقت قوة قادرة وانضباطية، فهذه هي سياسة بقعة الزيت والتنظيم الذي يسير"29.

لكن ما يشير الانتباه هو عدم اهتمام المؤلفين والدرسين برصد موقف المغاربة من السياسة البربرية قبل سنة 1930، وقد تجد لذلك مبررا في قلة المعلومات الواردة في الموضوع، أما المصادر والمراجع الفرنسية فإنها تنطلق من فكرة أساسية، تتمثل في تثبيت البربر بأعرافهم وتقاليدهم ورفضهم للتقاليد والمؤسسات المخزنية، ولدعم هذا الرأي تشير هذه المصادر إلى أن الجنرال ليوطي Lyautey بعد أن اتخذ قرار اقتحام الأطلس المتوسط في ربيع سنة 1913، ذهب إلى دار "القايد يطو" يوم 8 يوليوز من نفس السنة والتقى ببعض زعماء إحدى الاتحاديات الذين رهنوا استسلامهم بالتزام الإقامة العامة باحترام الأعراف البربرية، وتضيف هذه المصادر أيضا بأن ليوطي Lyautey قبل الشرط، ووعد بإقناع السلطان بالموافقة عليه30.

كما نجد في بعض الكتابات المغربية ما يفيد بأن الفرنسيين استعانوا ببعض القواد البربر مث إدريس أورحو المصيري وسعيد بن حدو عقي، وهو من منطقة أزرو، لتنفيذ مخططهم البربري، حيث جمعوا الناس قرب هذه المنطقة وحفروا قبرا، وبعد انتهائهم من عملية بناء القبر قالوا "هذه الشريعة الإسلامية دفناها هنا وليس حكم اليوم إلا شريعة العرف"31.

ويرى بعض الوطنيين المغاربة رأيا آخر، فقد ذكر علال الفاسي مثلا أن رواية الانتفاضة الوطنية ضد السياسة البربرية في الوسط الأمازيغي تعود إلى سنة 1916، حين ثارت أو تظاهرت مجموعة من نساء قبيلة زمور، فأطلق عليهن الجيش الفرنسي النار³²، أما السيد الطيب بن أحمد العلمي فقد ذكر أنه حين علم سنة 1927 أن الفرنسيين يحاولون استصدار ظهير يفصل العائلة البربرية عن العائلة الإسلامية، أخذ يجوب القبائل في الأطلس المتوسط ويلقنها مقاصد الفرنسيين، لهذا فإنها حين اجتمعت بطلب من المراقبين الفرنسيين من أجل اختيار الشهود الذين يجلسون مع القواد أثناء إصدار الأحكام، قالوا بصوت واحد "إننا لنا شرعا وقضاة ولا نحتاج إليهم (أي الشهود)، الشيء الذي أخرج الفرنسيين الذين شرعوا في طرد وصرف الناس عن الاجتماع"³³.

نلاحظ إذن أن ما تتوفر عليه من معلومات حول الموضوع، قليل وغير كاف، فهو ما يزال في حاجة إلى البحث والاستقصاء، ولو أننا نعتقد أن المغاربة بصفة عامة باستثناء المخزن لم ينتبهوا قبل سنة 1926، إلى خطورة هذه السياسة، بل ليس لدينا ما يؤكد أنهم كانوا على علم بها خصوصا وأن مطبقها الأول الجنرال ليوتي Lyautey أحاطها بالسرية والكتمان³⁴، لكم المخزن كان على علم بها، إذ السلطان مولاي يوسف انتبه منذ وقت مبكر لخطورتها فعارضها³⁵، وعرقل إلى حد ما تطورها³⁶، وكان ذلك سببا من أسباب توتر العلاقة بينه وبين المقيم العام تيودور ستيج Tyodour Steeg، وقد أدرك السلطان مولاي يوسف منذ البداية أن هذه السياسة تشكل مساحا صريحا بسلطته كأمر للمؤمنين تمارس على القبيلة بواسطة القايد والقاضي معا، وأن مشروع التنظيم القانوني للجماعات القضائية بإلغاء الشرع من المناطق البربرية يعني الاعتراف الرسمي بالسيبة، والسيبة هنا لا تعني رفض سلطة المخزن فقط، وإنما العودة إلى تقاليد الجاهلية أيضا³⁷.

وبعد وفاة السلطان سنة 1927 بدأ الشعب المغربي ينتبه تدريجيا إلى مقاصد الفرنسيين من وراء تطبيق السياسة البربرية، وذلك لم يحدث إلا بعد انتهاء حرب الريف التي كان لها وقع شديد في نفوس المغاربة، وكذلك بعد شروع شباب الحواضر المتسييس، خصوصا بمدينتي فاس والرباط، في تنظيم نفسه من أجل مواجهة المخططات الاستعمارية، وقد تتبع هؤلاء الشباب باهتمام وانفعال شديدين أعمال الإقامة العامة وجهود الكنيسة من أجل تنصير البربر.

ونؤكد في هذا الإطار بأن انعقاد المؤتمر الصليبي الدولي بدولة تونس ما بين 7 و 11 ماي 1930، شعروا بأن مؤامرة تدبر وتحاك ضد الإسلام، ولهذا السبب مظلوا إلى الظهير البربري الذي صدر في 16 ماي من نفس السنة، على أنه يستهدف عزل البربر من أجل تنصيرهم، خصوصا وأن هذه الفترة شهدت نشاطا ملحوظا للبعثات المسيحية، وكنتيجة لذلك فقد أثار هذا الظهير البربري ردود فعل عنيفة وتسبب في انطلاق المظاهرات والحركات الاحتجاجية، التي انطلقت من المدن في شهر يونيو 1930، وواجهتها سلطات الحماية بقوة وعنف، الشيء الذي تسبب في وقوع حوادث مؤلمة واعتقالات كثيرة.

خاتمة:

يتبين لنا من خلال ما سبق، أن السياسة البربرية أدت إلى نتائج عكسية لما كانت تتوخاها سلطات الحماية الفرنسية، إذ ساهمت في توحيد صفوف المغاربة ودعم العمل الوطني، وقد شعر الوطنيون الذين بنوا عملهم على أساس المزج بين مبادئ الوطنية والسلفية بأبعاد نجاحهم، وبضرورة تنظيم صفوفهم وتحييء وتوضيح برنامجهم، كما أحسوا بأن النضال السياسي يتطلب تنسيق الجهود من السلطان محمد بن يوسف، لذلك ارتبط لديهم العمل بالتفكير والنضال بضرورة وحتمية التنظيم، فكان ذلك سببا أساسيا في تقوية الحركة الوطنية وتمكينها من تحقيق أهدافها بعد التحامها مع سلطاتها الشرعي.

أما الفرنسيون فقد شعروا بأن إصدار الظهير البربري كان خطأ سياسيا فادحا، لذا فإنهم مباشرة بعد ذلك:

-- تراجعوا عن تأسيس إدارة العدلية بالمناطق البربرية.

-- أقالوا بعض المسؤولين عن تدبير هذه السياسة، مثل بول مارتى Paul Marty من مناصبهم.

-- حاولوا جاهدين إلصاق مسؤولية ما حدث بالكنيسة.

-- كما أنهم قرروا تعديل بعض بنود الظهير البربري، إذ تراجعوا عن مبدأ إلحاق المناطق العرفية بالمحاكم الفرنسية فيما يتعلق بالأموال الجنائية، إلا أنهم لم يتخلوا كلية عن الإجراءات التي اتخذوها في مجال السياسة البربرية، فهم مثلا حافظوا على وجود المحاكم العرفية الابتدائية والاستئنافية، والأكثر من ذلك أنهم لم يتخلوا عن فكرة استعمال وتوظيف العنصر البربري للضغط على السلطان والحركة الوطنية، وهذا ما أظهرته بشكل جلي أحداث سنة 1953، التي انتهت بخلع السلطان محمد بن يوسف ونفيه 38.

الهوامش:

¹ - هو الظهير الذي أصدرته سلطات الاحتلال الفرنسي في يوم 16 ماي 1930 باسم السلطان، ويقضي بإخضاع القبائل الأمازيغية لمحاكم عرفية غير تابعة للسلطان (المخزن)، وذلك بهدف تمزيق الوحدة المغربية، وقد أعقبته عدة مظاهرات واحتجاجات.

² - عياش ألبير، المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقدم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 1985، ص. 69.

³ - محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912-1939، دراسات في تاريخ شمال إفريقيا الحديث، دمشق، 1972، ص. 106.

⁴ - De Chénier, Recherches historiques sur les maures et histoire de l'empire de Maroc, Tome1, vol 3, imprimerie Polytype, Paris, 1787, p. 36.

⁵ - Georges Lemprière, Voyage dans l'empire du Maroc et dans le royaume du Fès, fait dans les années 1970 et 1971, imprimerie Tavernier, Paris, 1801, p. 97.

⁶ - Abbé Guillaume, Thomas François Raynal, Histoire philosophique et politique des établissements, et du commerce des européens dans les deux Indes, T.2, imprimerie et librairie Associés, Paris, 1826, p. 137.

⁷ - Charles Robert Ageron, les Algériens musulman et la France 1871-1919, T.1, revue française d'histoire d'outre-mer, tome 55, n° 201, 4eme trimestre, presse universitaire de France, Paris, 1968, pp. 269 – 276.

⁸ - De Chénier, Recherches historiques sur les maures et histoire de l'empire de Maroc, op, cit, p. 191.

⁹ - Ludovic de Campou, un empire qui croule : le Maroc contemporain, librairie plon- Nourrit, Paris, 1886, p. 25.

¹⁰ - Edouard Michaux – Bellaire, L' organisme marocain, Rev. Du Monde Musulman, Paris, septembre 1909, pp. 3 – 43.

¹¹ - عبد الحميد احسانين، أصول سياسة فرنسا البربرية بالمغرب إلى غاية سنة 1930، مقال منشور بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، يوليو 1987، ص. 69.

¹² - المرجع نفسه، ص. 87.

¹³ - Charles Robert Ageron, politiques coloniales au Maghreb, T.1, édition PUF, Paris, 1972, pp. 145 – 149.

¹⁴ - Edmond Doutté, une mission d'étude au Maroc(Renseignements coloniaux), 1901, pp. 161- 167.

¹⁵ - Marquis de Segonzac, Voyages au Maroc 1899 – 1901, librairie Armand colin, Paris, 1903, pp. 103 – 209.

¹⁶ - Daniel Rivet, Ethnologie et conquête du Moyen Atlas 1912 – 1931, Presses de l'école normale supérieure, Paris, 1938, p. 161.

¹⁷ - موريس لوكلاي من الفرنسيين الذين تعرفوا على المغرب قبل احتلاله، وأفادوا بمعلوماتهم القوات الفرنسية في مرحلة الاحتلال.

¹⁸ - Alfraid Le Chatelier, le Maroc berbère et les mines européennes, librairie plon- Nourrit, Paris, 1910, pp. 145 – 200.

¹⁹ - ذكر ليوطي في منشور أرسله إلى الحكام العسكريين بالمناطق العرفية مايلي: "ليس من واجبنا أن نعلم اللغة العربية لأناس دأبوا على الاستغناء عنها، إن اللغة العربية تؤدي إلى الإسلام....، في حين أن مصلحتنا تحتم علينا أن نطورهم خارج إطار الإسلام....، يجب أن نعمل من الناحية اللغوية على الانتقال مباشرة إلى اللغة الفرنسية.

²⁰ - الجريدة الرسمية المغربية، سنة 1914، ص. 407.

²¹ - الجريدة الرسمية المغربية، سنة 1922، ص. 758.

²² - أقفل هذا الظهير الباب في وجه القاضي والشرع الإسلامي بالمناطق العرفية، في حين فتحها على مصراعيها أمام القانون الفرنسي، كما أنه دعم دور واختصاصات الجماعات القضائية التي أصبحت تسمى بالمحاكم العرفية، بل إنه أكثر من ذلك تحدث عن تأسيس محاكم عرفية استئنافية في أوساط هذه القبائل.

²³ - Charle. André.Julien, le Maroc face aux impérialisme 1515 – 1956, Paris, p. 105.

²⁴ - أسست الإقامة العامة الفرنسية بعض المدارس بالأطلس المتوسط، وقد كانت تسمى المدارس الفرنسية – البربرية، وكان الهدف الأساس من تأسيسها نشر استعمال وتكوين الأطفال ليصبحوا مستخدمين أو موظفين صغار وكذلك تدجين البربر، ففي منشور أصدره مدير المعارف في عهد ليوطي نجد ما يلي: إن هدفنا الأول هو التدجين، فلو عرف المعلم كيف يفرض نفسه على التلاميذ والآباء بشخصيته وطريقته التربوية لربحت القضية ولكانت تفاصيل البرامج قليلة الأهمية (أنظر عبد الحميد احسانين، مرجع سابق، ص، 145).

²⁵ - Charles Robert Ageron, politiques coloniales au Maghreb, op, cit, p. 107.

²⁶ - Ladislav Cerych, Européens et marocaine : Sociologie d'une décolonisation, librairie Burges, Paris, 1964, p. 131.

²⁷ - Edouard Laoust, Le taleb et la Mosquée en pays berbère, bulletin de l'enseignement public au Maroc, Octobre 1924, p. 3 – 18.

²⁸ - أحمد تافسكا، تطور الحركة العمالية في المغرب: 1919 – 1939، دار ابن خلدون بيروت، 1980، ص.

144.

²⁹ - Georges Catroux, Lyautey le Marocain, imprimerie Reliure, Paris, 1964, p. 25.

³⁰ - Georges, Spillman, du protectorat à l'indépendance, Maroc 1912 – 1955, librairie Plon, Paris, 1967, p. 54.

³¹ - الطيب بن أحمد، مذكرات، مقال بمجلة الموقف، عدد 4، نشر مطابع سلا، المغرب، دجنبر 1987، ص. 47.

³² - الفاسي (علال)، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، نشر مؤسسة علال الفاسي، الرباط، ط. 5، 1993، ص. 146.

³³ - المرجع نفسه، ص. 50.

³⁴ - ذكر السيد الطيب العلمي أنه علم من الأوساط المقرية من الإقامة العامة، أن هذه الأخيرة كانت تحاول استصدار ظهير يفصل بين العائلات البربرية والعائلات الإسلامية، إلا أنه مل يذكر شيئا عن سياسة ليوطي البربرية.

³⁵ - Charles Robert Ageron, politiques coloniales au Maghreb, op, cit, p. 122.

³⁶ - Charles Robert Ageron, politiques coloniales au Maghreb, op, cit, p. 130.

³⁷ - عبد الحميد احساين، أصول سياسة فرنسا البربرية بالمغرب إلى غاية سنة 1930، مرجع سابق، ص. 146.